

## صورة الآخر (\*)

عرض محمد نور الدين أفأيه

بدعوة من الجمعية العربية لعلم الاجتماع انعقدت بتونس ما بين 29 و31 مايو ندوة دولية في موضوع «صورة الآخر» شارك فيها ما يقرب من 120 باحثاً ومتخصصاً من أمريكا وأوروبا وآسيا وأغلب البلدان العربية. ووعياً منها بحساسية الموضوع وما يستدعيه من مفارقات وخلفيات، ارتأت الجمعية أن لا تقتصر المشاركة في معالجته على علماء الاجتماع. وإنما فتحت المجال لأكثر ما يمكن من تخصص داخل الاهتمامات العامة للعلوم الاجتماعية والإنسانية. وهكذا شارك مؤرخون وعلماء نفس وقانونيون وفلاسفة وسياسيون وأدباء ونقاد، عملوا، طيلة أيام الندوة، كل حسب مجال اهتمامه واستنتاجاته الخاصة، على الاقتراب من قضية «صورة الآخر» بوصفها قضية حاملة لكل التأويلات والكليشيات والصور السفسطية.

ولا يخفى على أحد أن حرب الخليج، وازدهار النزعات القومية، وتنامي الدعوات الراضية للأجنبي وللآخر، واهتزاز القيم الكبرى، كل ذلك جعل من التساؤل حول صورة الآخر أكثر من مهلة راهنة، ليس فقط على الصعيد العربي بل على المستوى الإنساني كذلك. فالجميع يشعر، بطرق متفاوتة، أنه ضحية تلاعب كبير يستهدف فرض صورة تائهة عن الآخرين. فالإيقاع المتوتر والصراعي للعلاقات بين الشمال والجنوب، والشرق والغرب وما بين الانتماءات الدينية والإثنية المختلفة، وفر - أي هذا الإيقاع المتوتر - إمكانية تأجيج ما هو مكبوت وتنشيط الأحكام المسبقة والصور المقولبة،

(\*) قراءة موجزة لوقائع ندوة الجمعية العربية لعلم الاجتماع بتونس بين 29 و 31 مايو 1993.

إضافة إلى أنه فرض أسئلة كبرى عن إمكانية وشرعية القيام بتأمل فكري متجرد حول الذات والآخر دون السقوط في شرك الانفعال والانفعال العاطفي.

من منطلق الايمان بضرورة الإنصات إلى تموجات الذات وتناقضات الآخر، كان من الضروري أن يتم اللقاء للقيام بمحاولة للتفكير المادي حول الهوية والاختلاف، الشرق والغرب، الذات والآخر، المواطن الأجنبي، المسيحي والمسلم، اليهودي والفلسطيني.... الخ. وأن يترتب عن هذا التفكير اقتراح شروط إمكانية التحرر مما يعمل على إعاقة تكوين نظرة أكثر إنسانية للإنسان وأكثر إنتاجاً لما يجمع بين الناس، مع تقدير الفروق، واحترام الاختلافات. ولتحقيق هذا الهدف، أو على الأقل للاقترب من صياغة بعض عناصره، استدعت الجمعية العربية لعلم الاجتماع باحثين ومختصين من مجتمعات وجنسيات وتجارب مختلفة بل وحتى من ديانات مختلفة، لتكسير الحواجز وإزاحة الأوهام والاعتراف العلني بخطورة الآليات المشوهة لصورة الآخر، لا سيما حين يراد لهذا الآخر أن يكون «كبيش فداء» العقد الأخير من القرن العشرين.

ونظراً للعدد الكبير من الذين استجابوا لدعوة الجمعية - ما يفوق 100 مشارك - من أمريكا واليابان وأغلب بلدان أوروبا الغربية وروسيا وبلدان ما نُعت بالمعسكر الشرقي سابقاً والبلدان السكندنافية وأكثر الأقطار العربية، ونظراً لحجم هذه المشاركة التي أعطت طابعاً دولياً فعلياً لهذا اللقاء، نظمت جلستان عامتان، وفرع المشاركون الباقيون على ست مجموعات عمل جاءت على الشكل التالي:

1 - مشاكل الغيرية L'Altérité Problèmes de

2 - ما وراء الحدود Au - delà des Frontières

3 - الاختلاف والتراتب: المواطنة Difference et hiérarchie: citoyenneté

4 - الاختلاف والتراتب: المهاجر Difference et hiérarchie: l'immigré

5 - الاختلاف والتراتب: المرأة Difference et hiérarchie: La femme

6 - الآخر من الخطاب العلمي، الأدبي والفني L'autre dans le discours scientifique, littéraire et artistique

وهكذا وعلى الرغم من العدد الكبير من المشاركين تمكن الجميع من أخذ الكلمة سواء في الجلستين العامتين أو في مجموعات العمل التي لم تغفل أي موضوع يتناول أو يقترب من مسألة الآخر. فقد تم التعرض للصور المتبادلة بين العرب والأفارقة، وصور الآخر في الخطاب الروائي العربي، والآخر في المتخيل السينمائي المغاربي، وصور الآخر في النزعات السياسية ما بين الإثنية بالاتحاد السوفياتي سابقاً، وصوره الآخر في ألمانيا الموحدة، والكنيسة الكاثوليكية والإسلام وأوروبا، وصوره الآخر وصوره الذات: عودة الوباء القومي إلى أوروبا، وصوره الآخر من خلال التحالف مع الغرب، والعرب في التصور الإسرائيلي، وانعكاسات حرب الخليج وأزمة الهويات، وإثبات الذات وصوره الآخر لدى الكيبكيين، وبريطانيا والمجموعات المحلية، وإنتاج الهويات عند التونسيين في فرنسا، والإسرائيليون في المرأة العربية، وصوره الآخر من خلال تقارير الرحلات السفارية المغربية إلى أوروبا، والشرق في المتخيل الجماعي الغربي، وصوره الآخر في الخطاب الاسلامي المعاصر، وصوره الأمريكي لدى المواطن العراقي... الخ. أما موضوع المهاجرين فإن نسبة لا بأس بأهميتها من المشاركين الهولانديين والايطاليين والفرنسيين جعلوا منه منطلق أبحاثهم وتحليلاتهم.

كل ما يمت إلى مسألة الغيرية بصلته تم تناوله في هذه الندوة، من حقوق الإنسان إلى الجسد. والمرأة والمهاجر والشرق والغرب، ومفارقات الغرب ابتداءً من فكر الأنوار إلى ما أسماه أحد المشاركين بـ «عودة الوباء القومي الى أوروبا»... الخ ولم يخجل أحد من طرح أفكاره واعتراضاته وكأن الجميع وعى منذ البدء، الرهان التواصلية الذي يفترضه مثل هذا الموضوع، الأمر الذي انعكس على اخلاقيات المناقشة وأساليب الاستماع. لا شك أنّ نسبة من المشاركين شعروا بنوع من الحرمان في إلقاء عروضهم داخل الجلسات العامة وأن اختيار توزيع الحاضرين على مجموعات العمل قلص من امكانيات التواصل والنقاش. لكن فترة الندوة وعدد المشاركين فرض على الجهة الداعية، ضرورة اعطاء الكلمة للجميع ولكن ضمن مجموعات يلتقي فيها تقارب الموضوعات وعناصر الاختصاص.

وقد لاحظ الاستاذ «دانيال بارتو» من المركز الوطني للبحث العلمي بباريس، أنّ الغيرية كانت تمثل، على الدوام لغزاً مُحيراً، إذ الآخر يدرك بطريقة كونية شبه مطلقة على انه خطر كامل ومهدد، وقد يصبح على وجه الاحتمال، جذاباً، على الرغم من

اختلافه، او بالأحرى بسبب هذا الاختلاف نفسه. فالاحكام المسبقة والانماط الشائعة، مثلها مثل المحاسن الجذابة، تبقى مستعصية على تفكير العقل أو تكاد. ويتأتى الخطر من ظروف خصوصية تولّد مشاعر الكبت مثل الازمات الاقتصادية او الاكتظاظ السكاني، والانحطاط الجماعي والحيرة الايديولوجية، هذه الظروف تحثّ الناس على التفتيش عن «المذنبين». وتتحول هذه المشاعر تجاه الآخر الى مواد اولية قابلة للالتهاب فيكون من اليسير حينئذ على رجال السياسة الذين لا مبدأ لهم ان يستخدموها، فتتحول الى قوة متفجرة وعمياء. أمّا الاستاذ «روبير شارفان» من كلية الحقوق بنيس (فرنسا) فإنه اعتبر أنّ أوروبا ما انفكت ومنذ تاريخ طويل، وعلى الرغم من قولها بالقيم الانسانية تؤسس الاساطير الجماعية النافية لأولئك الذين تعتبرهم في كل حقبة كأخرين. وقد يكون هذا الآخر عرقاً (إثنية) أو أيديولوجياً، وقد تتنوع اشكال الاقصاء وتتراوح ما بين الحشد في «الغيتوات» إلى الابداء الجماعية، وكأن الدول والجماعات السائدة لا يمكنها الاستغناء عن الاعداء من اجل اثبات الهوية وضمان البقاء. وعلى سبيل المثال، كما يلاحظ الاستاذ «شارفان» فإن عدااء الكنيسة الكاثوليكية التقليدي للسامية تواصل مع العدااء للشيعوية في القرن العشرين الذي اخلى بدوره المكان لمعاداة «العربي» (مع الاشارة إلى ان مفهوم العربي مفهوم ملتبس قد يتسع لأصناف اخرى).

مجموعة كبيرة من الباحثين الغربيين عبرت عن مواقف نقدية ازاء اساليب تقديم وتشويه الآخر في بلدانهم، بل ان البعض منهم مثل، والى حدّ كبير، ذلك التراث النقدي الحي الذي يسكن العقلانية الانوارية، والتي حينما يذيع عنها الغرب غالباً ما يقترف جرائم وتجاوزات باسم الحفاظ على استمراريته وضمان مصالحه المتوحشة حتى ولو كان ذلك ضدّ المبادئ الكبرى التي يتبجح بها او على حساب حرية وكرامة الاخرين.

من ناحية المساهمين العرب فقد توزعت تدخلاتهم بين من انطلق من موضوع خاص بساحته الوطنية (مثل لبنان، فلسطين، العراق... الخ) ومن اختار تناول القضية من منظورها العربي الحضاري العام. وقد اعتبر الاستاذ طاهر لبيب (وهو رئيس الجمعية العربية لعلم الاجتماع) أنّ تطور الصراع بين الشرق العربي واوروبا منذ العصور الوسطى والاحداث الكبرى التي فجّرها هذا الصراع، ولّد لدى العرب تصوراً للآخر غالباً ما يتقدم اليهم بوصفه غالباً محتلاً وعدواً. وقد تساءل في سياق بحثه، عن امكانية تحويل

هذا الآخر العدو الى مجرد آخر. ملاحظاً أن العرب انتقدوا طويلاً صورتهم المشوهة لدى الآخر. ولكنهم لم يتساءلوا عن ميكانيزمات بنائهم لصورة الآخر لا سيما اذا عرفنا ان التطور التاريخي للغيرية (Alterité) يثبت بأن صورة الآخر ظرفية وليست ثابتة بشكل مطلق.

يصعب استعراض كل ما قدم عن «صورة الآخر» التي كانت ندوة دولية على اكثر من صعيد. فكل المشاركين جاء الى اللقاء لتقديم ملامح آخر لا يكف عن الحضور في المجال العام للهوية لدرجة انكشفت فيها الذوات واشكال التعبير عن الانتماء بموازاة كل الاحاديث عن الاخر والآخرين. لذلك كان التواضع سيد الموقف وقاعدة اخلاقية مثيرة في انماط التواصل والتبادل التي نسجت اثناء انعقاد الندوة والتي ستعقد لا محالة، وإلى ما بعد انعقادها.

لم يأت المشاركون الى تونس لتبديد كل الغيوم والاهام المحيطة بسؤال «صورة الاخر» لأنه سيقى مطروحاً كلما ازداد العالم توتراً والقوي ظلماً وتجيراً، وكلما تفاوتت الهوية بين الشمال والجنوب والغرب والشرق. وقد سجّل اكثر من متدخل غربي ان الآلة الاعلامية والصحافية الغربية، وبعدها سقط جدار برلين وانهار الاتحاد السوفياتي، وبعده الضربة المدمرة التي اصابت جسم العالم العربي بتكسير شوكة العراق، تعمل هذه الآلة الاعلامية على جعل العربي والمسلم والمغاربي كبش فداء العقد الأخير من القرن العشرين وتقديمه بوصفه يمثل تهديداً للقيم الغربية الكبرى. لا شيء محسوم في هذا المجال، ولكن الندوة نبهت لظواهر وتحولات بالغة الاهمية تتعلق بكل ما يسمى سؤال الآخر والغرابة والاجنبي والاختلاف... الخ.

ما يؤخذ على هذه الندوة هو ان المنظمين مع انهم بذلوا مجهودات كبيرة في ترتيب ظروف دعوة اكبر عدد ممكن من المساهمين في تناول موضوع «صورة الآخر» ولكنهم اغفلوا فئة لها دور بارز في انتاج او اعادة انتاج صورة الاخرين، الا وهي فئة الفنانين ولاسيما منهم من يتعامل مع الصورة البصرية مباشرة...